

مصطلحات المخرج الصوتي عند الخليل

الأستاذة : نجيدة ولهاسي

جامعة سيدي بلعباس

تتصف اللغات البشرية عامة بكونها كلاما منطوقا يتداول مشافهة. أما مفهوم الأصوات اللغوية المفردة التي تتشكل بائثلافها الكلمات فلم يتضح إلا بعد ظهور الأبجدية، التي يرمز فيها الحرف إلى صوت بدلا من الأشكال والمقاطع، وقاد ذلك إلى وصف الأصوات، ومعرفة خصائصها.

ولعل أهم ما يعمد إليه الدارسون والمتخصصون في اللغات، قبل التعمق في بقية التفاصيل الصوتية، هو تصنيف أصوات اللغة المدروسة بداية، وتبدو أهمية التصنيف في أنه يعد عملا أساسيا يسهل دراسة الأصوات، فيكون قائما على معايير معينة.

قد دفعت قراءة القرآن علماء اللغة العربية القدامى لتأمل أصوات اللغة وملاحظتها ملاحظة ذاتية، فدرسوها بالاعتماد على دعامتين أساسيتين: **المخارج**، **والصفات**، إذ بهما تتميز الأصوات البشرية، يتضح هذا من قول القرطبي معرفا للصوت: "فالحروف هي مقاطع تعرض للصوت الخارج مع النفس ممتداً مستطيلاً فتمنعه عن اتصاله بغايته، فحيث ما عرض ذلك المقطع سمي حرفاً، وسمي ما يسامته ويحاذيه من الحلق والهم واللسان والشفيتين **مخرجاً**، ولذلك **اختلف الصوت باختلاف المخارج واختلاف صفاتها**... وهذا الاختلاف هو خاصية حكمة الله تعالى المودعة في هذا الشخص، إذ بها يحصل التفاهم، ولولا ذلك لكان الصوت واحداً بمنزلة أصوات البهائم التي هي من **مخرج** واحد وعلى **صفة** واحدة، فلم يتميز الكلام، ولا عُلم المراد، فبالاختلاف يعلم، وبالاتفاق يعدم" **1**. وموضوع مخارج الأصوات ودراستها من أهم مباحث علم الأصوات اللغوية، وحظي بعناية علماء العربية، والتجويد، كما حظي باهتمام الباحثين المحدثين.

والملاحظ في دراسات القدامى أنهم لم يوردوا في كتبهم الكثير من التعريفات للمخرج، والتي يمكن أن نذكر منها تعريف ابن يعيش الذي يقول فيه: "والمخرج هو المقطع الذي ينتهي الصوت عنده" **2**، لكن قلة هذه التعريفات لا يعني عدم إدراكهم لمفهوم المخرج، وإنما يرجع ذلك عموماً إلى عدم اهتمام القدامى بتعريف المصطلحات كثيراً، بسبب شيوع مفاهيمها عند الدارسين، كما يرجع أيضاً إلى طبيعة المناهج المتبعة في بحوثهم، والتي لم تكن تهتم بالتعريفات في الكثير من الأحيان.

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن مصطلح المخرج في اللغة يوحى بمفهوم المفارقة، والتحول، والترك ويفهم من هذا أن "مخرج" الصوت هو موضع مروره من موضعه الأصلي إلى موضع جديد، ولكن هذا المفهوم في حقيقته لا ينطبق على المخرج الصوتي في آثار الدارسين.

فالمفهوم الاصطلاحي للمخرج يختلف عن المفهوم اللغوي لأن المخرج اصطلاحاً هو موضع حدوث الصوت، ووجوده في البداية، أو وسط، أو منتهى الجهاز النطقي، أي هو موضع حدوث، ونشأة، وتكوين أمّا لغة فهو موضع مرور وانتقال فحسب **3**

إنّ هذه الدلالة الاصطلاحية اتخذت معالمها في القرن الأول الهجري مع أبي الأسود الدؤلي، الذي كان يعتبر الشفتين هما موضع عبور الصوت، وتحقيقه، وتحوُّله، يقول لكاتبه: "إذا رأيتني فتحت فمي بالحرف فأنقط نقطة فوقه على أعلاه وإذا ضمنت شفتي... وإذا كسرتها..." **4**

والخليل بن أحمد الفراهيدي (175هـ) في القرن الثاني هو أول من وزّع الأصوات على مواقعها باعتبار جريان الصوت، وتوقفه، والملاحظ أن الخليل حين تحدث عن مخارج الحروف لتحديد مواضعها في الجهاز النطقي كان يستعمل مصطلحات متنوعة هي: المبدأ، والمخرج، والمدرج، والحيز، فالخليل كان يستخدم أكثر من مصطلح للشيء الواحد، فهو دائم الاختراع والتجريب، ويرجع ذلك إلى معرفته الواسعة باللغة، إضافة إلى عبقريته، وذكاؤه النادر في وضع كل شيء في موضعه.

فقد ذكر الخليل لفظ "المخرج" لكن بصورة أقل، مثلاً في قوله "فحروف الذلاقة تخرج من ذلق اللسان" والحروف الشفوية "مخرجها من بين الشفتين" 5، كما ذكر مصطلح "الحيز"، و "المدرج"، و "المبدأ"، وفي الحقيقة كلها مصطلحات متداخلة، يصعب وضع حدود فاصلة بينها، ومع ذلك فهناك من حاول التماس بعض الفروقات بينها، سنحاول إيضاحها .

أ- الحيز: "الحيز" في اللغة يدل على الجمع والتجمع. يقال لكل مجمع وناحية حوز، و حوزة، قال الخليل: "حيز الدار: ما انضم إليها من المرافق، والمنافع... والتحيز في الحرب: أن ينضم قوم إلى قوم" 6. وقد استعمل الخليل: (الحيز، والأحياز) كأماكن في مجرى النطق نسب إليها مجموعة من الحروف، كما ذكر هذا المصطلح حين فرق بين الحروف الصراح، و بين وحروف المد، فنسب الأولى إلى أحيز محددة، ونسب الثانية إلى الجوف، وقال عن هذه الأخيرة: "فلم يكن لها حيز تنسب إليه إلا الجوف" 7.

فالحيز هو الموضع الذي تتجمع فيه عائلة صوتية واحدة، فتتنسب إليه، يتضح ذلك من قوله — مثلاً- في حديثه عن الميم: "الميم من الحروف الصراح الستة المذلفة التي في حيزين: حيز الشفتين، وحيز ذولق اللسان... وهي آخر الحروف من الحيز الأول، وهو الحيز الشفوي" 8.

من هنا استنتج الدكتور عبد الله أبو شعر أنّ الأحياز عند الخليل تكون ثمانية هي: 1-الشفتان، 2-ذلق اللسان، 3-اللثة، 4-نطح الغار الأعلى، 5-أسلة اللسان، 6-شجر النعم، 7-اللهة، 8-الحلق 9 وكل من هذه الثمانية نسب إليها مجموعة من الأصوات، كالحلقية، والشجرية، و... الخ

وربما وافق هذا الطرح الدكتور مكّي درار في قوله: " وذلك مثل الحروف الحلقية كلها تنتسب إلى الحلق مع تفاوت بينها وبين حروف أقصى الحلق ووسطه، وأدناه ... والحلق كله بتقسيماته الثلاث يسمى حيزاً 10. كما فرق هذا الأخير بين الحيز والمخرج، وذهب إلى أنّ الأول أوسع من الثاني، لأن المخرج ربما ضمّ حرفاً واحداً فقط ، وربما أكثر، أمّا الحيز فلا بدّ أن يحتوي على مجموعة من الحروف حتى يطلق عليه هذا الاسم 11.

ب- المدرج: المدرج في اللغة يدلّ على مضيّ الشيء، والمضيّ في الشيء، من ذلك قولهم: درج الشيء، إذا مضى لسبيله. ومدارج الأكمة: الطرق المعترضة فيها 12. ورد عند الخليل: "المدرجة: ممرّ الأشياء على مسلك الطريق، ونحوها" 13.

وورد مصطلح "المدرج" عند الخليل في تقسيمه الحروف العربية، حين قال: في العربية تسعة وعشرون حرفاً: منها خمسة وعشرون حرفاً صحاحاً لها أحياز ومدارج، وأحرف جوف وهي: الواو، والياء، والألف اللينة، والهمزة، وسميت جوفاً لأنها تخرج من الجوف فلا تقع في مدرجة من مدارج اللسان، ولا من مدارج الحلق، ولا من مدرج اللهة، إنما هي هاوية في الهواء فلم يكن لها حيز تنسب إليه إلا الجوف 14.

ونحن نستأنس برأي الدكتور عبد الله أبو شعر، حين علّق على نصّ الخليل بقوله: "ويلاحظ - من خلال النص - أن المخارج الرئيسية عند الخليل ثلاثة: الحلق، واللسان، واللهاء. وهذه المخارج الكلية الثلاثة تضم الأحياز الثمانية - التي تقدّمت في "الحيز" - وهذه الأحياز تضم مخارج الحروف التي هي مدارج، أي: يرتقي فيها الصوت من مخرج إلى مخرج أعلى منه بحسب الترتيب الصوتي من الداخل إلى الخارج، بدليل قوله في موضع آخر عن بعض حروف الحلق والقاف والكاف: "فهذه ثلاثة أحرف في حيز واحد بعضها أرفع من بعض... ثم القاف والكاف لهويتان، والكاف أرفع" فهي في ذلك كمثّل درجات السلم التي يرتقي فيها الإنسان، وهذا يحقّق اختياره الدقيق للمدرجة والمدارج، والله أعلم. **15**

وقد وافق الدكتور مصطفى بوعناني هذا الطّرح، وهو يرى أن "المدرج" عند الخليل يقصد به "الموضع" الذي يتحقّق فيه الحرف الواحد، وذلك في قوله: "إذ يعين المدرج موضع انقطاع الهواء الهاوي في مجرى الجهاز النطقي بأحد أعضاء النطق أو جزء من أجزائه بطريقة، وكيفية معينة ينتج عنها تحقّق الحرف مميّزا عن حروف أخرى" **16**. و يستدل على أن المدرجة موضع بما جاء في تهذيب اللغة **17** من أمر تصنيف الأزهرى لحروف الذلاقة، إذ جعل الحروف الطرفية (اللام والراء والنون) في حيز أول من مخرج عام واحد، وجعل الحروف الشفوية (الفاء والباء والميم) من حيز ثان من مخرج عام واحد، وتتحقّق أحرف كل حيز في مدارج مختلفة؛ أي في مواضع مختلفة، وبكيفيات متميزة وعليه فالمدرج مبدأ للحرف وموضع تحقّق فيه، والحيز مجال أوسع لمجموعة حروف لها مخرج واحد من مدارج مختلفة فالحروف (ع ح هـ) مثلا تنتمي إلى أقصى الحلق لكن لكل منها مدرج معين في الحلق، وكيفية خاصة يتحقّق بها متميّزا عن الحروف الأخرى، ويستشهد بقول الخليل: "ولولا بحة في الحاء لأشبهت العين لقرب مخرجها من العين، ثم الهاء، ولولا هتة في الهاء، وقال مرة "ههة" لأشبهت الحاء لقرب مخرج الهاء من الحاء" **18**.

ويضيف الدكتور بوعناني تأويلا موسيقيا لهذه المفاهيم التصنيفية التي أتى بها، فينطلق من أن التنظيم اللغوي العربي تنظيم موسيقي **19** تراعى فيه بشكل دقيق خصوصيات التناغم على وجه التناسب والتآلف، ثم يأتي بقول الخليل الذي رواه عنه ابن المظفر: "إن لكل حرف من حروف العربية صرفا وجرسا، (أما الجرس فهو الصوت في سكون الحرف، أما الصرف فهو حركة الحرف" **20**. وجرس الحرف نغمته **21** التي تتحدد بنوع الحيز والمدرجة التي أدرج فيها، وبذلك تصبح الأحياز، والمدارج بمثابة السلم الموسيقي الذي تتوزع فيه النغمات أي (أجراس الحروف) على تراتب، وتدرج (بعضها أرفع من بعض).

و يرى الدكتور مكّي درار أن الخليل استعمل مصطلحي "المخرج" و "المدرج" وهو يقصد بهما موضع حدوث الصوت، في قوله مثلا "اعلم أن الحروف الذلقية والشفوية ستة هي الراء واللام والنون، تخرج من ذلق اللسان والشفتين، وهما مدرجتا هذه الأحرف الستة" **22**، إلا إن هناك اختلاف بينهما فالمخرج هو الموضع الذي يتحقّق، ويحدث فيه الصوت الواحد في حال إفراده، وبهذا المفهوم للمخرج ينفي أن يكون عدد المخارج في العربية تسعة وعشرون مخرجا بحيث يكون لكل صامت مخرجه المستقل، والخاص به، ولكن صوامت العربية وما ذكره لها من مخارج هو في حقيقته مدارج، وعليه فإن مصطلح "المدرج" عند الخليل يعني به الموضع الذي تتحرك منه مجموعة من الأصوات المتقاربة، والمدرج يعني بدأ الصوت الثاني عند نقطة توقف الصوت الأول، وذلك يتحقّق في حدوث الأصوات المتقاربة من بعضها، والمتعاقبة في حدوثها، بحيث تشكل سلسلة من الحلقات أقصاها خمسة عند الخليل (مدارج اللسان)، ثم يتحدد موضع حدوثها تحديدا عضويا فيزيولوجيا يسمى مدرجا؛ لأن الأصوات تنشأ فيه و تتدرج منه **23**.

ج- المبدأ : يدلّ أصله اللغوي على افتتاح الشيء ، يقال :بدأت بالأمر و ابتدأت، والمبدأ : مكان البدء **24**.

وقد استعمله الخليل في حديثه عن علّة نسبة الحروف إلى الأحياز الثمانية - التي تقدمت في الحيز - من ذلك قوله: " فالعين و الحاء والهاء والخاء والغين حلقية لأن مبدأها من الحلق، والقاف والكاف لهويتان لأن مبدأهما من اللهاة، والجيم والشين والضاد شجرية لأن مبدأها من شجر الفم" 25. ومع اختلاف معنى اللفظتين إلا أن كلمة "المبدأ" في حديثه حملت معنى " المخرج" ، وكأنه أراد باستعماله كلمة (المبدأ) توضيح معاني حلقية، ولهوية، وشجرية، وغيرها من المصطلحات.

ومن الباحثين من حاول التماس بعض الفروقات الدقيقة بين المبدأ، والمخرج في قوله "نفهم بتسمية المبدأ بهذا المصطلح أنه يعني بداية تكوّن الشيء، وهي المرحلة السابقة لاكتماله وحدوثه، أي أنه سابق لغيره، فهو الموضع الذي يبدأ الصوت فيه بالتجمّع، فالمبدأ هو بداية تجمع الصوت، وتشكّله قبل أن يتخذ مخرجاً محدّداً، ويتلوّن بصفة معينة، و المخرج هو انطلاق الصوت من موضع تجمع فيه ليصبح مدركاً سمعياً عند المستقبل له 26.

ربما يؤيد هذا الطرح كلام عبد الله أبي شعر عن "المبدأ" في قوله: " وأظنّ أنّ الخليل يعني به مكان ابتداء التصويت بالحرف، والاستهلال به " 27. ويرجح أن يكون هذا المصطلح خاصاً بصناعة النغم والألحان بدليل وروده عند الكندي، حينما قال عن الهاء: " أئحّا تحتاج إلى نفس يخرج من عمق الرئة، ففتحة، وهمزة اللهوات بمبدأ نغمة ووقفة "، و عند الفريابي في ذكره لأوائل الألحان، وهي أوائل نغمها والتي سماها " مبادئ الألحان "، و معروف عن الكندي والفريابي، و كذلك الخليل خبرتهم في مجال الألحان والنغم .

تسمى الصوامت عند علماء العربية القدامى بالحروف ، وقد عنوا بتقسيمها ووصفها من حيث النطق والإدغام ، والوقف، والابتداء.... وكان جل همهم وضع الأسس العلمية لما سموه بـ" مخارج الحروف" . وكان الخليل أسبق من ذاق الحروف لإدراك مخارجها، فالتذوق وسيلة للتوصل إلى تسلسل الأصوات المخرجي . و استخدم علماء العربية القدامى عدة مصطلحات للدلالة على مخارج الحروف، و قد أفاض الخليل في ذكرها كما وضحنا ، واستمرت هذه الاختلافات بعد الخليل، فقد سماها سيويه مخارج الحروف، والمواضع ، وسماها ابن جني المقاطع، وسماها ابن دريد مجاري الحروف، بينما سماها ابن سينا المحابس . و رغم تعدد هذه المصطلحات، وتضاربها يبدو أن المراد منها كان واحداً ألا وهو المخرج الصوتي التي تتميز به الحروف بالإضافة إلى الصفات عن بعضها البعض .

الهوامش

- 1- القرطبي عبد الوهاب، الموضح في التجويد، تح غانم قدوري الحمد، دار عمار، ط1، عمان-الأردن، 1421هـ/2000م، ص: 71.
- 2- ابن يعيش، شرح المفصل، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، دت، ج10، ص: 124.
- 3- مكي درار، المحمل في المباحث الصوتية من الآثار العربية، دار الأديب للنشر والتوزيع، السانية- الجزائر، 2004م، ص: 37.
- 4- أبو عمرو الداني، المحكم في نطق المصاحف، تح عزة حسن، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، دمشق، 1960، ص: 07.
- 5- ينظر الخليل، معجم العين، تح مهدي المخزومي و إبراهيم السمرائي، سلسلة المعاجم والفهارس، د ط، دت، ج1، ص: 51.
- 6- المصدر نفسه، ج3، ص: 275.
- 7- المصدر السابق، ج1، ص: 57.

- 8- المصدر نفسه، ج8، ص:421.
- 9- ينظر عبد الله أبو شعر، المصطلحات الصوتية في التراث اللغوي عند العرب- دراسة تاريخية تأصيلية من القرن الأول إلى القرن السادس الهجري، رسالة دكتوراه في اللغة العربية، كلية اللغة العربية جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1424هـ-1425هـ، ص:342.
- 10- ينظر مكّي درار، وسعاد بسناسي، المقررات الصوتية للبرامج الوزارية للجامعة الجزائرية- دراسة تحليلية تطبيقية، منشورات دار الأديب، وهران-الجزائر، 2007م، ص: 41 .
- 11- ينظر المرجع نفسه، ص:41.
- 12- ينظر ابن فارس، مقاييس اللغة، (درج)، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1422 هـ = 2001 م، مادة (درج)، ص:335 و336.
- 13- الخليل، العين، ج6، ص:78.
- 14- المصدر نفسه، ج:01، ص: 57.
- 15- عبد الله أبو شعر، المصطلحات الصوتية في التراث اللغوي عند العرب، ص:344.
- 16- مصطفى بوعناني، في الصوتيات العربية، والغربية- أبعاد التصنيف الفونيتيقي ونماذج التنظير الفونولوجي، عالم الكتب الحديث، ط1، الأردن، 1431هـ/2010م، ص:35.
- 17- ينظر الأزهرى، تهذيب اللغة، تح عبد السلام هارون، مراجعة محمد علي النجار، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والانباء والنشر، القاهرة، ج1، ص:50.
- 18- الخليل، العين، ج1، ص: 57 .
- 19- ينظر مصطفى بوعناني، الصوتيات العربية، والغربية، ص:36.
- 20- الأزهرى، تهذيب اللغة، ج1، ص:50.
- 21- ابن منظور، لسان العرب: تح عبد الله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، (جرس)، ج1، ص: 598.
- 22- الخليل، العين، ج1، ص: 57.
- 23- ينظر مكّي درار، المقررات الصوتية، ص:41.
- 24- ينظر ابن فارس، مقاييس اللغة، (بدأ)، ص: 202.
- 25- الخليل، العين، ج1، ص:58.
- 26- ينظر مكّي درار، المقررات الصوتية، ص:45.
- 27- عبد الله أبو شعر، المصطلحات الصوتية، ص:345.